جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

الدلالات السياقية للتطوّع في القرآن الكريم
دراسة بلاغية

The contextual connotations of volunteering in the Holy Qur'an: a rhetorical study

إعداد
د/ تغريد عبد العزيز سعد المبارك
الأستاذ المشارك بكلية اللغة العربية
جامعة أم القرى بمكة المكرمة المملكة العربية السعودية

(العدد الثالث والأربعون)
(الإصدار الثالث-أغسطس)
(الجزء الأول (١٤٤٦هـ /٢٠٢٤م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) *2536- 9083*
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢٤/٦٢٧١م

الدلالات السياقية للتطوّع في القرآن الكريم دراسة بلاغية

تغريد عبد العزيز سعد المبارك

كلية اللغة العربية في جامعة أم القرى بمكة المكرمة المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني: *taalmubarak@gmail*

الملخص

التطوع من أهم المعاني التي أصّل لها ديننا الكريم، وهو ذو سياقات متنوعة، وقد ورد التطوع في القرآن الكريم بلفظه تارة، وبما يقارب لفظه تارة أخرى، وبالمشاهد الدالة عليه كذلك، وسياق الآيات ذو أثر في توجيه دلالته، وتندرج هذه الدراسة ضمن الدراسات السياقية التي تهتم بلغة النصّ، وأنواع الخطاب، ومن أهم أهدافه: الكشف عن المسارات السياقية المتعددة لمعنى :(التطوع) وإبراز أثر تلك السياقات في توجيه الدلالة، مع معرفة المنهج القرآني لرعاية اللفظ الصريح لمعنى :(التطوّع) أو ما يقارب معناه، أو المشاهد الدالة عليه، وموقع كل ذلك من السياق، وخلص البحث إلى نتائج كان أبرزها بإيجاز:- تتنوع السياقات الوارد فيها ذكر التطوع بصريح لفظه، أو بما يقاربه، أو بمشاهده الدالة عليه؛ إلا أن النظر بطرف خفي في تناسب ذكره مع السياق الترتيلي للقرآن يُنتج لنا أن التطوع بالعبادة ركيزة تنطلق منها جميع أنواع التطوّع.- يعدّ التطوع في غير العبادة من الأعمال متعدية النفع، وهو باب أوسع من نظيره اللازم الذي يعود بالنفع على المسلم وحده، وربما يكون أعظم أجرا، وأدوم أثرا، وهو من أهم أبواب الدعوة إلى الله تعالى، ولكل ذلك تعددت سياقاته في القرآن الكريم .-معنى لفظي :(الخير والبرّ) يتصلان بمعنى: (التطوّع) بصلة وثيقة، كشف البحث عنها وحلّل أبعادها .-يعد الترغيب في التطوّع أبرز الأغراض التي حققتها السياقات الوارد فيها معنى التطوع سواء بلفظه الصريح أو بما يقارب معناه أو بالمشاهد الدالة عليه، وقد سلك مسالك متنوعة بتنوع المقامات الوارد فيها، وقد كشف البحث عنها .

الكلمات المفتاحية : دلالة، سياق ، تطوّع ، بلاغة ، قرآن.

The contextual connotations of volunteering in the Holy Qur'an: a rhetorical study

Tweet by Abdul Aziz Saad Al Mubarak
Faculty of Arabic Language at Umm Al-Qura University in Mecca, Kingdom of Saudi Arabia

Email: *taalmubarak@gmail*

Abstract:

Voluntarism stands as a cornerstone of Islamic values, encompassing a diverse range of contexts. Its mention in the Holy Quran manifests in various forms, including its explicit expression, near-synonyms, and alluding references. The contextual framework surrounding these occurrences plays a pivotal role in shaping its interpretation. This study aligns with the realm of contextual studies, delving into the language of the Quranic text and the types of discourse it employs. Among its primary objectives are:Unveiling the multifaceted contextual paths that inform the meaning of "voluntarism"Highlighting the impact of these contexts in guiding the interpretation of the termExamining the Quranic approach to employing the explicit term "voluntarism," its near-synonyms, or allusions that convey its essence, and the position of each within the contextThe research culminates in a set of key findings, summarized as follows:The contexts in which voluntarism is mentioned, whether explicitly, through near-synonyms, or through alluding references, exhibit remarkable diversity.A closer examination of its occurrence within the sequential context of the Quran reveals that voluntarism in worship serves as a cornerstone from which all other forms of voluntarism stem.Voluntarism beyond the realm of worship extends its benefits to a wider scope, surpassing the confines of obligatory acts that solely benefit the individual Muslim. It holds the potential for the greatest reward and enduring impact, standing as a powerful avenue for inviting others to the path of Allah.The terms "goodness" (الخير) and "righteousness" (البر) share certain aspects of meaning with "voluntarism" while also diverging in other respects. The nuances of this relationship are explored within the study.Encouraging voluntarism stands as a prominent objective underlying the diverse contexts in which the concept is presented, whether through its explicit expression, near-synonyms, or alluding references. This encouragement manifests through a variety of approaches, tailored to the specific contexts and themes.

Keywords: *Indication, Context, Voluntary Work, Rhetoric, The Holy Book Of Islam..*

المقدمة

وُلد علم الدلالة في أحضان الأصوليين؛ حيث الاهتمام بالألفاظ ومعانيها، فكان الإمام الشافعي (ت٢٠٤هـ) من أبرز هؤلاء العلماء، وظهر ذلك جليا في كتابه:(الرسالة) (١)، وعرفه علماء التفسير وعلوم القرآن كذلك، وظهر ذلك جليا في تفسيرهم، ولا تخفى جهود البلاغيين وأولهم الجاحظ حين وضع الدلالات الخمس، فكانت جهود المحدثين في التقعيد لعلم الدلالة، والتأصيل له، والتقسيم، والتفريع، فجعلوه على أنواع، منها: الدلالة الصوتية، والصرفية، والمعجمية، والتركيبية أو النحوية، والسياقية أو ما سمّوها الدلالة الاجتماعية(٢).

ظهر اهتمام النقاد والبلاغيين بالدلالة السياقية المستمدة من المقام والأحوال المحيطة(٣)، فأداروا فكرة البلاغة على الحال والمقام، أمثال: بشر بن المعتمر، وابن المقفع، والعسكري، إلى الجرجاني، ثم السكاكي، والقزويني، وذلك لفضل السياق في كشف المعنى، وإيصاله للمتلقي، وبلوغ مقاصد المتكلمين.

---

(١) ينظر: الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق أحمد محمد شاكر، صـ ٦٤-٦٥ ،ط ٢. ١٣٩٩ هـ، دار التراث-القاهرة.

(٢) ينظر علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ط١ ،١٤٠٢ هـ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع. ومثله في علم الدلالة تأصيلا ودراسة وتطبيقا، عثمان محمد أحمد الحاوي ، بدون طبعة، مكتبة المتنبي. المملكة العربية السعودية/ الدمام.

(٣)" ولقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمين ألف سنة تقريبا على زمانهم؛ لأنهم اعترفوا بفكرتي المقام والمقال باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى، يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة ."(اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان صـ ٣٣٧، بدون ط، دار الثقافة- الدار البيضاء.

ويتفاوت المتلقون باختلاف إدراكهم، وباختلاف ملابسات تلقيهم للنص في فهم المقاصد والأغراض التي وجّه السياقُ المعنى لها.

وفقه المعنى القرآني لا ينفكّ عن دراسة السياق ومعرفة دلالاته وتوجيهه لمعنى الألفاظ، فلا تدرس الآية بمعزل عن سباقها ولحاقها ومقامها، وهذا هو ما يظهر لنا من توجيه نبينا ﷺ لتفسير عائشةﷺ لقوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُون ﴾(المؤمنون ٦٠) حين قالتﷺ: "أهُم الذين يَشرَبونَ الخَمرَ ويَسرِقونَ؟ قال: لا يا بِنتَ الصِّديقِ؛ ولكِنَّهم الذين يصومون ويُصَلُّونَ ويتصَدَّقون وهم يخافون ألَّا تُقبَلَ منهم، أولئك الذين يسارِعونَ في الخيراتِ وهم لها سابِقونَ"([1])؛ وذلك لأن الرسول ﷺ نظر إلى سياق الآيات، سباقه من لحاقه، فجاء التفسير الصحيح لمعاني آيات الله تعالى.

وقد اهتم المفسرون بدلالة السياق، من أمثال: الإمام الطبري (ت٣١٠) فقد قال في تفسير قول الله تعالى:﴿وإن من أهل الكتاب﴾ (النساء١٥٩) : "فتوجيه الكلام إلى ما كان نظيرا لما في سياق الآية أولى من توجيهه إلى ما كان منعدلا عنه"([2])، وقال: " فغير جائز صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها، من دلالة ظاهر التنزيل أو خبر عن الرسول تقوم به حجة"([3]).

وكلامه هذا يبين عن قيمة دلالة السياق، وهي الأولى بالأخذ إلا في حالة

---

(٤) سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ (ومن سورة المؤمنين) رقم الحديث: (٣٤٤٩) ط١، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، دار الرسالة العالمية-بيروت .

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر ١١٦/٣ ، ١٤٠٥ هـ - بدون ط ، دار الفكر/ بيروت.

(٦) السابق ٤/ ١٥٥ .

وجود ظاهر من التنزيل أو حديث عن الرسول ينفي تلك الدلالة .

والتطوّع من أهم المعاني التي أصّل لها ديننا الكريم، وهو ذو سياقات متنوعة، وقد ورد التطوّع في القرآن الكريم بلفظه تارة، وبما يقارب لفظه تارة أخرى، وبالمشاهد الدالة عليه كذلك، وسياق الآيات له أثر في توجيه دلالته، وهو ما سيكون موضوع هذه الدراسة-بإذن الله تعالى- .

أهمية البحث:

-تندرج هذه الدراسة ضمن الدراسات السياقية التي تهتم بلغة النص وأنواع الخطاب، والبحث البلاغي بحاجة إلى مثلها .

-إن هذه الدراسة تلقي الضوء - في وجهٍ من وجوهها - على التصريف البياني لمعاني التطوع في السياق القرآني مما يسهم في فقه المعنى.

-إن تدبر موقع اللفظ من سياقه وإبراز دلالاته السياقية، والوقوف على العلاقة بين الدلالة السياقية وبين الوضعية؛ يسهم في تعميق العربية، والكشف عن دقائقها.

-الوقوف على سياقات لفظ (التطوع)، وما يشاكله في القرآن الكريم، والمشاهد التي تعبّر عن معناه؛ يسهم في إثراء المكتبة البلاغية في الدراسات القرآنية.

-الكشف عن سياقات لفظ (التطوع)، وما يشاكله في القرآن الكريم، والمشاهد التي تعبّر عنه؛ ذو قيمة تربوية، وأثر نفسي من شأنه الإسهام في النهضة بقيم الأفراد والجماعات.

-الكشف عن سياقات لفظ (التطوع)، وما يشاكله في القرآن الكريم، والمشاهد التي تعبّر عنه؛ من شأنه تعزيز قيم الإسلام والإنسانية، مع ما يظهر فيه من موافقة رؤيا المملكة العربية السعودية ٢٠٣٠ القائمة في جزء منها على تعزيز قيم التطوّع والارتقاء بها، وتوسيع دائرته، ومجالاته، وصوره، حتى نصل إلى مليون متطوّع .

أهداف البحث:

-الكشف عن المسارات السياقية المتعددة للتطوع الذي يبرز وجها من وجوه الإعجاز البياني للقرآن الكريم.

-إبراز أثر السياق في توجيه دلالات:(التطوع) بلفظه، أو بما يقارب لفظه، أو بالمشاهد الدالة عليه؛ للوقوف على وجه من وجوه التصريف البياني .

-إلقاء الضوء على المنهج القرآني في رعاية المفردة القرآنية وموقعها من سياقها .

-الوقوف على الطرائق التي يرغّب فيها القرآن الكريم في التطوع.

-استثمار الدرس البلاغي في تعزيز قيم التطوّع بما يحقق التكافل بين أفراد المجتمع.

-بيان سعة الدرس البلاغي وشموليته ومواكبته لتحقيق بعض مضامين رؤية المملكة العربية السعودية٢٠٣٠ والتي تختص بأن يصبح التطوّع قيمة في الأفراد فالجماعات.

مشكلة البحث وتساؤلاته وفروضه:

تكمن مشكلة البحث في الكشف عن السياقات الدلالية للتطوع بلفظه، وبما يقارب لفظه، وبالمشاهد المعبرة عنه، وبيان أثر السياق في توجيه الدلالة، ويجيب البحث عن التساؤلات الآتية:

-ماهي مسارات السياقات الوارد فيها معنى التطوع ؟ وما الأغراض البلاغية المتحققة في تلك المسارات؟

-ما أثر السياق في توجيه لفظ التطوع؟ وما مستوى العلاقة بين الدلالة الوضعية للفظ التطوع والدلالة السياقية ؟

-كيف كشف السياق عن معنى التطوع في الألفاظ المقاربة له؟ وما هي الصلة بين معنى التطوع والألفاظ المقاربة له ؟

-كيف كشف السياق عن التصريف البياني لمعنى التطوع في المشاهد الكاملة في القرآن الكريم؟

-كيف كان نهج القرآن الكريم في رعاية موقع المفردة من سياقها؟

ويفترض البحث تعدد سياقات التطوّع بلفظه، وبما يقارب لفظه، وبالمشاهد الكاملة له، مع تنوّع طرق الدلالة على غرض الترغيب في التطوعّ التي يحققها السياق في كل مرة بما يتناسب مع سياق المعنى ومقصد السورة.

منهج البحث وحدوده:

تقوم الدراسة على المنهج الوصفي بمعونة الاستقراء والتحليل لنماذج من الألفاظ الدالة على التطوّع صراحة وما يقاربها في الدلالة والمشاهد الدالة عليها، تعين وجوه النظر البلاغي في المنهج البياني على الكشف عن السياقات المقامية للتطوّع، وما يتعلق به من مستويات بيانية، مع الاستعانة بالكلّيات الضابطة للجزئيات، ومعرفة المقاصد والأغراض.

ومما يعين على ذلك النظر في السياق القريب للآيات المراد دراستها، ومنه إلى السياق البعيد؛ لتوجيه الدلالة فيما ورد من صريح لفظ التطوّع، أو بما يقارب معناه ، أو بالمشاهد الدالة عليه، مع النظر في صلة ذكر معنى التطوّع -باختلاف صوره - بمقصود السورة أو معانيها الكلية، مما يظهر أثره في فقه المعنى القرآني ووضوح وشائجه وروابطه .

أما حدوده فقد تمّ الاستشهاد ببعض المواضع التي ورد فيها لفظ :(التطوّع) بلفظه الصريح، أو بالمعاني المقاربة له، أو بالمشاهد الكاملة على سبيل التمثيل لا الحصر؛ لضيق المقام، ولفتح الباب أمام الدارسين للولوج إلى هذا البحث لاستيفائه بالنظر والدراسة والتمام.

الدراسات السابقة:

هناك دراستان في موضوع التطوّع وهما لا تتناولان جانب الدراسة السياقية، ولا البلاغية، ولا تمتان لهما بصلة، فإحداهما في التفسير، والأخرى في طرق التدريس [١].

هيكل خطة الدراسة:

التمهيد: خلاصة آراء أهل العلم في السياق وصلته بالدلالة .

المطلب الأول: الدلالات السياقية لصريح لفظ :(التطوّع) في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: الدلالات السياقية للألفاظ المقاربة للفظ :(التطوّع) في القرآن الكريم.

المطلب الثالث: الدلالات السياقية لمشاهد التطوّع في القرآن الكريم.

---

(٧) الأولى: التطوع في القرآن الكريم، مفهومه، شروطه، مجالاته، تأصيله، المثنى عبد الفتاح محمود، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، المجلد ٤١، ملحق ١، ٢٠١٤م. وهو بحث ترقية في تخصص التفسير، يقع في ثلاثة مباحث، الأول: مفهوم التطوع. الثاني: شروط التطوع ومجالاته. الثالث: التأصيل القرآني في إنشاء الجمعيات التطوعية.
الثانية: العمل التطوعي في ضوء القرآن الكريم، والسنة النبوية، رؤية شرعية معاصرة، محمد محمود العطار، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، والعربية للبنات بالسادات، ٢٠٢١م، وهو بحث ترقية في تخصص رياض الأطفال، ويقع في خمسة مباحث، الأول: العمل التطوّعي:(المفهوم والخصائص والأهمية)، الثاني: العمل التطوّعي في ضوء القرآن. الثالث: العمل التطوّعي في ضوء السنة النبوية، الرابع: الرؤية الشرعية المعاصرة للعمل التطوّعي، الخامس: النتائج والتوصيات والدراسات المقترحة.

التمهيد

خلاصة آراء أهل العلم في السياق وصلته بالدلالة

معنى السياق وخلاصة آراء أهل العلم فيه:

لما كان معنى السياق في أصله الوضعي: "حدو الشيء"(١)، فيقال: ساق الإبل وغيرها: إذا انساقت، وتساوقت الإبل تساوقا: إذا تتابعت(٢)؛ كان المعنى كله يدور على التتابع والاتصال بدون انقطاع، أو التقارب بدون تباعد .

هذا المعنى وقع عليه النقاد والبلاغيون منذ القدم، فاهتموا بالحال، والمقام، وبالصلات التي تربط الكلام بعضه ببعض، ولعل بشر بن المعتمر (ت٢١٠) من أوائل الذين أشاروا إلى ذلك حين قال فيما نقل عنه الجاحظ: " الكلام لا يرتفع بأن يكون من معاني الخاصة، ولا يتضع بأن يكون من معاني العامة، وأن مدار الشرف إنما هو على الصواب، وإحراز المنفعة، مع موافقته لمقتضى الحال، وما يجب لكل مقام من مقال"(٣)؛ فمدار شرف الكلام عند بشر على صوابه، وإصابته الغرض، ولا يكون الكلام عنده محرزا نفعا إلا إذا كان مفيدا، ولا يكون مفيدا إلا إذا أدّى المقصود منه، مع موافقته للاقتضاء وما يلزم الأحوال، والمقامات من المقالات، وهذه نظرة متقدمة ذات امتداد تصل بنا إلى السياق بنوعيه المقامي، والمقالي . والجاحظ نفسه

---

(١) مقاييس اللغة، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، مادة:(سوق) بدون ط: دار الجيل – بيروت .

(٢) لسان العرب .أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، ابن منظور الأفريقي المصري، ط٣ ،١٤١٤ هـ-١٩٩٤ م ، دار صادر لبنان – بيروت .

(٣) البيان والتبيين ،أبو عثمان الجاحظ ، حققه وشرحه: حسن السندوي ١/ ١٢٧، بدون ط ، ١٩٩٠ م، دار المعارف – تونس.

(ت٢٥٥) في حديثه عن أقدار المعاني، وأقدار المستمعين، وأقدار الحالات، وطبقات الكلام والمقام، واشتراط الموازنة بينها، كان يشير إلى شيء من السياق.([1])

والخطابي(ت٣٨٨) في حديثه عن الأركان الثلاثة التي يُرّد إليها إعجاز القرآن الكريم قال: "لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم "([2]) وفيه إشارة إلى صحة مكان اللفظ من سياقه حتى يؤدي المعنى المقصود، ومعلوم أن عبارته هذه كانت نواة لنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني .

والقاضي عبد العزيز الجرجاني (ت٣٩٢) تحدث أيضا عن رتب المعاني، وضرورة تقسيم الألفاظ عليها، حين قال:" أرى لك أن تقسّم الألفاظ على رتب المعاني، فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مديحك كوعيدك"([3]) ولا تخفى مراعاة المقام لمقتضى الحال في الخطاب التي تشع من مقالته.

وعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١) أشار إلى السياق حين وضع نظريته التي تدل –في مجملها –على تعلّق الكلم بعضه ببعض، وعدم وجود خصيصة لمعنى اللفظ دون أن ينظر مكانه من السياق، وذلك أثناء حديثه عن البيان في قول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ

(١) السابق ١/١٢٧-١٢٨ .

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، حققها وعلّق عليها: محمد خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام ، ط٤ ، بدون ت ، دار المعارف/ القاهرة .

(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه، أبو الحسن علي بن عبد العزير القاضي الجرجاني، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي صـ٢٤، بدون ط، بدون ت، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، دمشق .

وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾([1])(هود ٤٤) وعن بعض الأشعار التي أردف بها الحديث بعد الآية الكريمة، وظهر اهتمام السكاكي (ت٦٢٦) بمقتضى الحال الذي يتداخل مع السياق من حديثه عن أضرب الخبر، ومقتضيات الحذف، والذكر، والتعريف، والتنكير، وباب الفصل والوصل، ومحاسن كل منهما التي تظهر مقتضيات الأحوال، وباب الإيجاز والإطناب، وبلاغة كل منهما في الاستعمال، كلّ في مقامه([2]). وتابعه القزويني (ت٧٣٩) في هذا النظر في كتابه: (الإيضاح) حينما شرح القسم الثالث من مفتاح العلوم.([3])

هذا السرد المختصر يؤكد معرفة القدماء للسياق وإن أشاروا إليه بجزئياته من الحال والمقام والنظم وغيره، ذلك السياق الذي أشبعه المحدثون تعريفا وتفريعا وشرحا، ويعود الفضل في تأطير هذا العلم إلى (جون فيرث) حيث قال: "إن اللغة ينبغي أن تدرس بوصفها جزءا من المسار الاجتماعي، أي: كشكل من أشكال الحياة الإنسانية، وليس كمجموعة من العلامات الاعتباطية أو الإشارات"([4]) فاللغة عنده ذات وظيفة تواصلية، تظهر من خلال الاستعمال. وحديث تمام حسان عن قرائن

---

(١) دلائل الإعجاز أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي ، قرأه وعلّق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر صـ ٣٥ وما بعدها ، ط٣، ١٤١٣ هـ-١٩٩٢ م ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، مطبعة المدني -جدة .

(٢) ينظر مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي، ط١، دار الكتب العلمية -بيروت.

(٣) ينظر الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، شرح وتعليق وتنقيح: محمد عبد المنعم خفاجي ١٩/٢، ط٣ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م ، دار الجيل/ بيروت .

(٤) اللسانيات النشأة والتطور، أحمد مؤمن صـ١٧٧ ط٢ ، ٢٠٠٥م، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون- الجزائر.

السياق أسهم في التأصيل له كذلك(١)، وعرّف السياق فهد الشتوي بأنه: "الغرض الذي تتابع الكلام لأجله مدلولا عليه بلفظ المتكلم أو حاله أو أحوال الكلام أو المتكلم فيه، أو السامع"(٢)، كما فصّل عبد العزيز الطلحي الحديث في دلالة السياق بين التراث العربي، والغربي، متعرّضا لمعنى السياق عند كل من اللغويين والبلاغيين والمفسرين والأصوليين.(٣)

ويذكرون السياق القرآني فيقصدون به الأغراض والمقاصد الأساسية التي تدور عليها معاني القرآن، مع إعجازه وأسلوبه البياني(٤)، وجهود المحدثين كبيرة في دراسة السياق والسياق القرآني خاصة. (٥)

---

(١) ينظر البيان في روائع القرآن ١/١٦٣وما بعدها، ط٢، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، عالم الكتب/ القاهرة.

(٢) دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى صـ٢٧، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين.

(٣) ينظر: دلالة السياق، (ردة الله الطلحي سابقا) صـ ٢٥ وما بعدها، ط١، ١٤٢٣هـ، كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى .

(٤) دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن ، عبد الوهاب أبو صفية الحارث. صـ٨٨ . ط ٢٠١٢م . دار عمار .

(٥) مثل:السياق القرآني وأثره في التفسير، دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور، محمد عبد الوهاب الراسخ ،جامعة الأزهر الشريف. والسياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة، سعد محمد الشهراني، ط١، كرسي القرآن الكريم وعلومه، جامعة الملك سعود. والسياق القرآني وأثره في التفسير(دراسة نظرية وتطبيقية) من خلال تفسير ابن كثير، عبد الرحمن عبد الله المطيري، رسالة ماجستير، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م ،كلية الدعوة وأصول الدين -جامعة أم القرى .

صلة السياق بالدلالة :

السياق قد يكون المقصود منه سياق النص الذي عبّر عنه الشافعي (ت٢٠٤) بقوله: " وتبتدئ العرب الشيء من كلامها يبين أول لفظها فيه عن آخره وتبتدئ الشيء يبينه آخر لفظها منه عن أوله"(١)؛ فبهذا المقصود يكون للعرب ميزة في تعبيراتهم المتكاملة، مما يجعل المعنى واضحا مركّزا يرسّخ بعضه بعضا، ونظر الشافعي هذا ذو أبعاد تناسبيّة متقدمة، وفيه بيان أهمية الوحدة العضوية والموضوعية في النصوص، وهو من جانب آخر يبيّن أثر السياق في توجيه دلالة الألفاظ، وإيضاح المعاني.

وقد يكون المقصود به سياق الموقف المتعلق بالمتكلمين والمخاطبين والعوامل الاجتماعية المحيطة بهما، وبأسباب النزول، والسابق واللاحق من الآيات وهو ما أشار إليه العزّ بن عبد السلام (ت٦٦٠)حين قال: "السياق مرشد إلى تبيين المجملات، وترجيح المحتملات، وتقرير الواضحات، وكل ذلك بعرف الاستعمال، فكل صفة وقعت في سياق المدح كانت مدحا، وكل صفة وقعت في سياق الذم كانت ذمّا، فما كان مدحا بالوضع فوقع في سياق الذم صار ذما، واستهزاء، وتهكما بعرف الاستعمال"(٢) وهذا قول نفيس في بيان أثر السياق، إذ ذكر أمثلة من القرآن الكريم لا يتبيّن معناها بغير معرفة مكانها من سياقها(٣)، فالسياق لا يرشد إلى المعنى فقط،

---

(١) الرسالة ١/١٦٤.

(٢) الإمام في بيان أدلة الأحكام ، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، صـ١٥٩، دراسة وتحقيق: رضوان مختار بن غربية، ط١ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م دار البشائر الإسلامية - بيروت .

(٣) ينظر: السابق صـ ١٥٩ وما بعدها .

إنما هو يبيّن ما يجمل من القول، ويعين على ترجيح رأي محتمل، ويؤكد ما كان واضحا يعينه على ذلك الأعراف والمقامات.

وقد يكون السياق هو الغرض، كما جاء في قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة٢٧٥)؛ حيث سيقت الآية لنفي النظير(١)، فالسياق يجعل المعنى أكثر وضوحا لارتباطه بغرض المتكلم .

والسياق كذلك يسهم في تقدير المحذوف، وهذا ما نجده في الإيجاز بالحذف في مثل قول الله تعالى: ﴿واسأل القرية﴾(يوسف٨٢)، أو ما يسمى بالاحتباك أو الحذف التقابلي، مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٣٨) ، فإذا كان أصحاب الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، كان أصحاب النار في خوف وحزن خالدَين.

ويفيد السياق في فهم وتوجيه مشتبه النظم الكريم، وتأويله تأويلا صحيحا، والشواهد على ذلك كثيرة جدا في كتب المهتمين بمشتبه النظم من المفسرين، مثل: الإسكافي والكرماني وغيرهما.

---

(١) "إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه، وليس هذا قياسا منهم للربا على البيع؛ لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا: إنما البيع مثل الربا، أي: هو نظيره، فلمَ حُرّم هذا وأُبيح هذا ؟! وهذا اعتراض منهم على الشرع."
(تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري، ٧٦/٥ الدمشقي، المحقق: محمد حسين شمس الدين، ط١، ١٤١٩ هـ ، دار الكتب العلمية- بيروت) .

وإذا ذكروا السياق القرآني الترتيلي([1]) قصدوا نسق السور وترتيبها في القرآن الكريم ، وغير ذلك من التعبيرات الدالة على التتابع والتساوق، ودرسه يفيد في معرفة تناسب السور القرآنية، وأسرار اقتران بعضها ببعض، مثل: الدراسات التناسبية القائمة على الترتيب الترتيلي للقرآن الكريم .

وستهتم هذه الدراسة بالتركيز على معنى السياق الذي اصطلح عليه البلاغيون قديما، فأطلقوا عليه (المقام) وفق ما تقرر لدى بعض أهل العلم، ويراد به : الظروف والمواقف والأحداث التي وردت فيها الآيات الكريمة (أسباب النزول)، مع بيان أثره في توجيه دلالة (التطوّع) بلفظه الصريح، وبما يقارب معناه، وبالمشاهد الدالة عليه في شواهد نحسبها فتح باب للباحثين لإتمام الباحث وتكميله .

(١) ينظر المعنى القرآني، معالم الطريق إلى فقهه في سياق السورة، رؤية منهجية ومقاربة تأويلية، محمود توفيق محمد سعد، ط١، ١٤٤٢هـ -٢٠١٠م ، مكتبة وهبة / القاهرة .

المطلب الأول

الدلالات السياقية لصريح لفظ: (التطوّع) في القرآن الكريم

حث الخطاب الرباني على التطوّع باعتباره قيمة دينية إنسانية؛ إذ التطوّع يشمل معاني عظيمة من الخيرية والبرّ والإحسان، كما أنه ينتقل بالفرد من طلب الغنيمة إلى الإنتاج والفاعلية، ومن التلقّي إلى الإعطاء، إلى الدعوية فالتنموية، والتطوّع يسهم في ترابط الأفراد، فإذا المجتمع كله قائم على التكافل والتراحم.

والتطوّع في أصله الوضعي: " الطاء، والواو، والعين، أصل صحيح واحد يدل على الإصحاب والانقياد، يقال: طاعه يطوعه إذا انقاد معه، ومضى لأمره، وأطاعه بمعنى: طاع له، ويقال لمن وافق غيره: قد طاوعه...والعرب تقول: تطاوع لهذا الأمر حتى تستطيعه، ثم يقولون: تطوّع، أي: تكلّف استطاعته، وأما قولهم في التبرع بالشيء: قد تطوع به، فهو من الباب، لكنه لم يلزمه، لكنه انقاد مع خير أحب أن يفعله، ولا يقال هذا إلا في باب الخير والبرّ"(١).

فالتطوّع: تكلّف فعل شيء غير لازم لصاحبه، مع انقياد وحب، أي: فعل الشيء بطواعية لا إكراه أو كراهة فيه، كما أنه خاص بباب الخير والبرّ لا يوصف به غيره.

أولا: صريح لفظ: (التطوع) في سورة البقرة :

قال –جل وعلا– في محكم تنزيله:{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} (البقرة ١٥٨) ومعنى الآية كما ذكر الطبري: " فمن حج البيت أو اعتمر فلا يتخوفن الطواف بهما ... ومن تطوع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته الواجبة عليه، فإن الله

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة: (طوع) .

شاكر له على تطوعه له بما تطوع به من ذلك ابتغاء وجهه فمجازيه به، عليم بما قصد "(١)، هذا هو المعنى الإجمالي للآية، وللعلماء في معنى التطوع المذكور في الآية رأيان: إما أن يكون التطوع المقصود هو: الزيادة على الحج والعمرة الواجبين، وإما أن يكون المقصود هو: الزيادة في أشواط الطواف بين الصفا والمروة على السبعة الواجبة(٢)، لكن الطبري كان يرى أن التطوع بالسعي داخل في التطوع بالعمرة والحج .

ولعل النظر في سياق الآية القريب يُظهر لنا بعضا من وشائج المعنى التي تسهم في إيضاح الدلالة، حيث كان الحديث عن تميّز المؤمنين الذين أذعنوا لمحمد ﷺ وصدقوه، تميّزٍ بالقبلة المكيّة، وتميّزٍ بالمحبة لله، وتميّزٍ بعدم التبعية، وكمل ذلك التميّز بإقصاء حرج المؤمنين من الطواف بالصفا والمروة، حيث ورد عن عائشةﷺ أنها قالت: "كان رجال من الأنصار ممن يهل لمناة في الجاهلية، ومناة صنم بين مكة والمدينة، قالوا: يا نبي الله، إنا كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيما لمناة، فهل علينا من حرج أن نطوف بهما؟ فأنزل الله-تعالى ذكره- الآية"(٣) فكانت الصفا

(١) جامع البيان ، ابن جرير الطبري ١٤٣/٣ .

(٢) ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش ٢/ ٤٤ ، ط٤، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، دار طيبة للنشر والتوزيع، وينظر: التفسير الكبير، الإمام محمد الرازي، فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين الشهير بخطيب الري٤/ ١٤٦، بدون ط، ١٣٩٨ هـ-١٩٧٨ م دار الفكر/ بيروت، وينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ، ٥/ ١٣٢، وينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق صـ٢٠٣، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، مؤسسة الرسالة.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٤٣/٣ .

والمروة من الشعائر الإسلامية التي أصبحت من أركان الحج والعمرة فيما بعد .

وهذا المعنى يتصل –في سياقه البعيد– بمقصود السورة الأعظم الذي يدعو إلى الإيمان بالغيب، فالتميّز بالطواف بين الصفا والمروة لإكمال شعائر الحج مما يجب فيه الانقياد والإذعان الذي هو أصل في الإيمان بالغيب، والإيمان بالغيب واليوم الآخر من أهم مقاصد سورة البقرة ومحاورها الكبرى.

والظاهر أن التطوع في الآية الكريمة –سواء قُصد منه ما زاد عن الحج والعمرة الواجبين، أو ما زاد عن الأشواط السبعة في الطواف– يؤسس لمعنى الترغيب في التنفّل، والزيادة، والتبرّع بأعمال الخير والبرّ الداخلة في مجمل العبادات، تنفّلا وتبرّعا وتزيّدا من طوع النفس وتلقائها، غير مكرهة عليه، هذا الترغيب ظاهر من أسلوب الشرط على قراءة عامة الكوفيين: ﴿وَمَن يطَّوَّعْ خَيْرًا فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ بالياء، وتشديد الطاء، وتسكين العين، وعلى قراءة أهل المدينة، وعامة أهل البصرة: ﴿ وَمَن تطَّوَّعَ خَيْرًا... ﴾ بالمضي(١)، والتوجيه البلاغي للقراءة الأولى هو: كون فعل الشرط لازما للجزاء الظاهر من تأكيد كون الله شاكرا لعباده، والشكر ورد على صيغة فاعل، صادر عن الرب الكريم، وهذا مقام جليل، فيه رفع لقدر المتنفّل بأعمال البرّ والخير، بكون الله تعالى– صاحب الملكوت العظيم، رب العالمين– يشكر عبده المملوك الضعيف على صنيع سيعود نفعه على العبد نفسه، وسياقه في أسلوب الشرط يفيد اللزوم، فضلا عن المقام الجليل الذي فيه ذكر الله؛ إذ لا يُتصوّر أن رب العالمين يَعد إلا والعطاء متحقق، وهو من وجه آخر كرم لا يضاهيه كرم، وزاده ثبوتا التأكيد بـ(إن) مع الجملة الاسمية، ولما نصّ– تعالى– على شكره أردف بالنصّ على عِلمه المطلق، سواء في ذلك المقاصد والخفايا والبواطن والظواهر وما يخطر على البال وما

(١) السابق، ٣/ ١٤٣.

لا يخطر .

وعلى القراءة الثانية بالفعل الماضي مع حروف الجزاء، فإنه يفيد معنى الاستقبال، أي: الجزاء على التطوع يكون مستقبلا؛ لأن الله شاكر لعباده على صنيعهم الخير، عليم بنيّاتهم، وإذا عُبّر عن الاستقبال بالمضيّ عُني به تحقق الوقوع لا محالة.

وعلى الجملة فإن هذه الفاصلة تذييل يقصد إلى" الإتيان بحكم كلّيّ في أفعال الخيرات كلها، من فرائض ونوافل، أو نوافل فقط"(١)، وهذا قول وافٍ لابن عاشور يشير فيه إلى التعميم المستفاد من تنكير لفظ (خير) الشامل لأعمال الخير وصنوف البرّ.

ومن الترغيب في التطوع يتفرّع لنا معنى يؤسس لطمأنة قلب المتطوع إلى أن الزيادة في العمل الصالح محسوبة لا تضيع، وقد عزّز هذا المعنى مجيء صفتي: (شاكر –عليم) واحدة تلو الأخرى.

ثانيا : صريح لفظ: (التطوع) في سورة البقرة (مشتبه النظم) :

قال تبارك وتعالى:﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة ١٨٤) الآية في سياقها البعيد تبين عن ذلك التميّز الذي خُصّ به المسلمون دون غيرهم، من تحويل القبلة والطواف حول الصفا والمروة، وإرهاصات فرض شهر رمضان للصيام، بدل الأيام المعدودة .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور ٢ /٦٤ ، بدون ط، ١٩٨٤م، دار سحنون للنشر – تونس .

والسياق القريب يحكي أن البرّ يكمن في الأصول لا في الفروع، البرّ يكمن في الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ... إلى آخر ما نصت عليه الآية، ويحكي كذلك أحكام القتل المتعلقة بالحرّ والعبد والأنثى، ثم الانتقال من الخاص إلى العام بذكر أحكام القصاص، وذكر أحكام الوصية إلى أن وصل إلى الصيام .

هذا السياق هو سياق المعنى الكلي الثاني (١) من سورة البقرة الذي يقرر فيه تعالى التكاليف الشرعية على من آمن بالله واليوم الآخر، وهو يتصل بمحور السورة القائم على الإيمان بالغيب؛ إذ التشريع أصل في الغيب، ومعنى الآية: "أن الله – تعالى ذكره – عمّم بقوله: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ فلم يخصص بعض معاني الخير دون بعض، فإن جمع الصوم مع الفدية من تطوع الخير، وزيادة مسكين على جزاء الفدية من تطوع الخير، وجائز أن يكون –تعالى ذكره– عنى بقوله: ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: هذه المعاني تطوع به المفتدي من صومه ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ﴾؛ لأن كل ذلك من تطوع الخير ونوافل الفضل، وأن تصوموا خير لكم"(٢) ذلك أن العلماء على رأيين في المقصود من التطوع في الآية: إما أن يكون المراد: من زاد على إطعام مسكين واحد فهو خير، أو يكون المراد: الصيام مع الإطعام هو خير .(٣)

فالتطوع المقصود متعلق بالصوم مع وجود الرخصة، أو الزيادة على إطعام مسكين واحد، وهو تفريع على ما قبله، وليس بين الصيام والإطعام تعارض، بل هو من باب التناسب بين المعاني؛ لأن الصيام إمساك عن الطعام، والإنفاق بذل للطعام.

---

(١) لسياق سورة البقرة معنيان كليان، الأول: دعوة جميع الناس إلى عبادة الله تعالى، والثاني: فرض التكاليف على الفئة التي آمنت به تعالى.

(٢) جامع البيان ١/ ٣٦٠ .

(٣) ذكر القرطبي وابن كثير والبغوي هذه الآراء مع نسبتها إلى مجاهد وابن عباس وابن شهاب .

وكأن الطبري يرى التطوّع المذكور تطوّعا في عموم الخير الذي منه الصيام والإطعام، في حين أن ابن عاشور يراه مخصوصا، وذلك مستفاد من رأيه في عقد مقارنة بين آيتي سورة البقرة المذكور فيهما التطوّع، حيث قال: "ولهذا عُطفت الجملة بالواو بدون الفاء؛ لئلا يكون الخير قاصرا على الطواف بين الصفا والمروة بخلاف قوله تعالى في آية الصيام: " ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ ﴾ ؛ لأنه أريد هنالك بيان أن الصوم مع وجود الرخصة في الفطر أفضل من تركه، أو أن الزيادة على إطعام مسكين أفضل من الاقتصار عليه"(١) فلعله يقصد: أن التطوّع في آية الصفا والمروة مقصود منه تطوّع عام في الخيرات كلها، وليس خاصا بالطواف بين الصفا والمروة، أما التطوّع في هذه الآية فمقصود منه تطوّع خاص بالصوم والفدية، أو زيادة على إطعام مسكين واحد، وذلك اعتماد منه على المقارنة بين حرفي العطف في الآيتين، والنظر في مشتبه النظم وأصناف الدلالة. وقد أشار الطبري إلى معنى العموم في التطوّع في الآية حين قال: "فلم يخصص بعض معاني الخير دون بعض"(٢) ولعله هو الأرجح عنده، لأنه أردف بقوله : " وجائز أن يكون تعالى ذكره عنى بقوله:﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ أي: هذه المعاني تطوّع به المفتدي من صومه "(٣).

هذا العرض لمعنى التطوّع في آيتي البقرة وسياقاتهما البعيدة والقريبة، وربط ذلك كله بمحور السورة، يقرر معنى ساميا جدا، وهو أن التطوّع الوارد بلفظه الصريح في الآيتين حمل معنى: الحث والترغيب في الزيادة في فعل الخيرات طواعية دون إلزام أو إكراه، كما يفيد معنى طمأنة المتطوّع بكفالة حقه من الأجر والثواب، ولعل النظر

---

(٧٦) التحرير والتنوير ١/ ٦٤.

(٣٨) جامع البيان ١/ ٣٦٠.

(٣٩) السابق ١/ ٣٦٠.

في السياق الترتيلي للقرآن الكريم بذكر صريح لفظ (التطوّع) يشي بمعنى أهمية أن يكون التطوّع في العبادة أولا، فالتنفّل والتبرّع يكون في الطاعة بالدرجة الأولى لما له من أثر على إيمان الفرد ورفعة درجته ويعززه موقع الشاهد من الآيتين : ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة ١٥٨) ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ (البقرة ١٨٤)؛ فالعبد إذا تطوّع وتنفّل بالعبادة فإنه يربي نفسه أولا، ويعوّدها على المطاوعة مع النفل حتى تستطيع، فإذا استطاعت النفس التنفّل في العبادة؛ لانت وهان عليها ما تجده في سبيل التطوع مع الغير، بل إنها ستجد حلاوة وطعما رائقا لا يجده كل أحد، وهذا من أساليب التربية للنفس وترويضها، والتنمية لعطائها .

المطلب الثاني

الدلالات السياقية للألفاظ المقاربة للفظ:(التطوّع) في القرآن الكريم

لما كان التطوع قيمة دينية، إنسانية، وطنية، مجتمعية، وكان دليلا على وحدة الأفراد، ووحدة مقصودهم؛ كان الترغيب في التطوع في الخيرات من معاني القرآن التي صُرِّف الحديث حولها في مختلف سوره.

ومن ضمن أساليب التصريف في الحديث عن التطوع؛ المجيء بالألفاظ المقاربة لمعنى لفظ (التطوع) من مثل: (الخير، البر، النفل، الصدقة، الإعطاء، الإحسان، الإيثار، الإنفاق، الإطعام) هذه الألفاظ لا تحدّ كثرة بعدا وقربا، وسنعرض للفظي: (الخير، والبر) ننظر في مدى صلتها وقربها وبعدها من المعنى الوضعي للفظ (التطوّع) نظرة من يفتح الأبواب المغلقة، ونعطي أمثلة حتى يسير الباحثون مكمّلين البحث في الموضوع.

أولا : لفظ : (الخير) وعلاقته بمعنى التطوع في القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قدير * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خير تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة ١١٠-١٠٩)، قال الطبري: " وَالْخَيْر : هُوَ الْعَمَل الَّذِي يَرْضَاهُ اللَّه "(١)، وقال البغوي: " طاعة وعمل صالح، وقيل المراد: المال"(٢)، فالخير في هذه الآية هو : عمل صالح يُنال به رضا الله تعالى ، ولعل تفسير الخير بالمال فيه نظر إلى تسمية العلماء (المال) خيرا في

(١) جامع البيان ٣١٠/١.

(٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي ٢٠٥/١ .

تفسير بعض الآيات(١)، بل إن الرسول ﷺ سمّى المال خيرا (٢)، وجعل المال الحقّ الذي يملكه الإنسان هو ما أنفقه على عياله محتسبا، أو ما أنفقه في وجوه الخير، وما أخّر صرفه وحفظه فهو للوارث(٣) وهذا يشير إلى العلاقة بين المال والخير من جهة، وإلى المال والاحتساب من جهة أخرى.

والخير في المعنى الوضعي: "الْخَاءُ وَالْيَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلُهُ الْعَطْفُ وَالْمَيْلُ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْه، فَالْخَيْرُ : خِلَافُ الشَّرِّ؛ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَمِيلُ إِلَيْهِ وَيَعْطِفُ عَلَى صَاحِبِهِ"(٤) وتحقيقه: أن الأصل في النفس البشرية هو ميلها إلى الخير وانعطافها عليه، وأعمال الخير تعود على صاحبها وتنعطف عليه بالأجر مما يجعله مفضّلا، مأنوسا به عند الناس، وهو عكس الشرّ تماما.

---

(١) قال تعالى: ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾(البقرة ١٨٠) وقال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات ٧) .

(٢) عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : جلس رسول الله ﷺعلى المنبر وجلسنا حوله فقال: "إن مما أخاف عليكم بعدي: ما يفتح من زهرة الدنيا وزينتها"، فقال رجل : أو يأتي الخير بالشر يا رسول الله؟ قال : فسكت عنه رسول الله ﷺ فقيل : ما شأنك تكلم رسول الله لا يكلمك، قال : ورأينا أنه ينزل عليه، فأفاق يمسح عنه الرحضاء، أي: "العرق"، وقال: " أين السائل؟ – وكأنه حمده – إن الخير لا يأتي إلا بالخير..." (صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق : مصطفى ديب البغا.(١٤٦٥) ط٣، ١٤٠٧-١٩٨٧، دار ابن كثير، اليمامة/ بيروت)

(٣) قال ﷺ: " أيُّكم مالُ وارثِه أحبُّ إليه من ماله؟ قالوا يا رسولَ اللهِ ما منا أحدٌ إلا مالُه أَحَبَّ إليه من مالِ وارثِه فقال رسولُ اللهِ ﷺ: اعلَموا أنه ليس فيكم أحدٌ إلا مالُ وارثِه أحبُّ إليه من ماله، مالُك ما قدَّمتَ، ومالُ وارثِك ما أخَّرتَ ."(صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٤٤٢)).

(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة : (خير). وقال الأصفهاني: الخير هو : " ما يَرغب فيه الكلّ، كالعقل مثلا، والعدل، والفضل، والشيء النافع، وضدّه: الشرّ". (المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ، ١٤١٢هـ، دار القلم، الدار الشامية – دمشق /بيروت .

والاستئناس برأي البقاعي في تفسير هذا الموضع هام جدا، حيث قال: "﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير﴾ أي: من الصلاة والزكاة وغيرهما، فرضا ونفلا"(١)؛ حيث جعل الخير في الآية هو: كل ما أوجبه الله من التشريعات، وما يتقرّب به إليه-تعالى- من النفل .

ووسّع النظر ابن عاشور حينما جعل هذا الموضع من الآية يعود على معنى المقطع كلّه حين قال: " مناسب للأمر بالثبات على الإسلام، وللأمر بالعفو والصفح، وفيه تعريض باليهود بأنهم لا يقدرون قدر عفوكم وصفحكم، ولكنه لا يضيع عند الله"(٢)؛ إذ السياق القريب للآيات فيه أمر بالثبات على الدين، والتنبّه لحسد أهل الكتاب، والأمر بالعفو والصفح عنهم، أعقبه الأمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ثم عمّم بالإغراء بتقديم الخير للنفس، ويكون ذلك بالبذل والعطاء؛ لأن ما يُقدم يُؤخذ أجره وما يُؤخر فهو للوارث -كما أفاد بذلك معنى الحديث-.

أما السياق البعيد للآيات فهو يُبين قضية من أهم القضايا في جدال أهل الكتاب، وهي كراهيتهم لخير ينزّل على المسلمين خاصة، وهي ركيزة هامة في المعنى الكلي من السورة الذي يدعو جميع الناس - على اختلاف أديانهم- إلى عبادة الله تعالى وحده، والتسليم لمحمد ﷺ بالنبوة، وهذا أصل في الإيمان بالغيب الذي يدعو إليه مقصود سورة البقرة .

فلفظ (خير) شمل معنى الخيرية كلها: الأعمال والأقوال الصالحة، الواجبة والمندوبة، وقد يقصد به المال. وعزّز معنى الشمول والعموم مجيء لفظ (خيرا) نكرة

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ، خرّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه: عبد الرزاق غالب المهدي ١/ ٢٢١ ، ط٢ .٢٠٠٣م-١٤٢٤هـ ، دار الكتب العلمية /بيروت- لبنان .

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٦٧٢.

في سياق الشرط، والأصل أن (خير) تستخدم للمفاضلة بين شيئين، وفي هذا السياق جاءت نكرة جارًّا ومجرورًا متعلّقا بمحذوف حال من (ما)، وهي ليست على صيغة أفعل، أي: لا يقصد بها التفضيل.

ولعل الفاصلة المؤكدة لإبصاره تعالى تعزّز الحثّ والحضّ على البذل في وجوه الخير، يقول الطبري في هذا الختم:" وهذا الكلام وإن كان خرج مخرج الخبر فإن فيه وعدا ووعيدا، وأمرا وزجرا. وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم؛ ليجدّوا في طاعته، إذْ كان ذلك مذخورا لهم عنده حتى يثيبهم عليه، كما قال : ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾، وليحذروا معصيته، إذْ كان مطلعا على راكبها، بعد تقدمه إليه فيها بالوعيد عليها، وما أوعد عليه ربنا –جل ثناؤه– فمنهي عنه، وما وعد عليه فمأمور به"(١) وتفسيره هذا أصل في البلاغة العربية حيث جعل فاصلة الآية بما حوته من معنى الإحاطة والعلم والتسجيل على العباد تُدخل ما أوعد عليه ربنا في باب النهي، وما وعد به في باب الأمر، وإن جرى الكلام مجرى الخبر.

و(الخير) من الألفاظ المتكررة في القرآن الكريم، وجاءت في هذا السياق بما يدل على مقاربة معنى التطوع والتنفل، فشمل ما يتقرّب به العبد من الطاعات وترك المعاصي، وشمل الأعمال الصالحة كلها، وبذلك يكون التطوع: ما زاد عن الواجب، والخير: يشمل ما ساوى الواجب وما زاد عنه مما لا يحدّ كثرة، وقد يكون خيرا محضا، كمكارم الأخلاق ومعالي الأفعال، وقد يكون خيرا لبعضهم وشرا لآخرين، كالمال الذي يُحسِن كسبه وصرفه أحدهم، ويُسيء كسبه وصرفه آخر، في حين لا يكون التطوع إلا في الخير فقط .

(١) جامع البيان ٦٣/٣ .

ثانيا : لفظ :(البرّ) وعلاقته بمعنى التطوع في القرآن الكريم:

قال تعالى :﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة ١٧٧)

اُختلِف في المقصودين بالخطاب في هذه الآية هل هم أهل الكتاب أم المسلمون؟ ورجّح الطبري اليهود والنصارى: "لأن الآيات قبلها مضت بتوبيخهم ولَومهم، والخبر عنهم وعما أُعدّ لهم من أليم العذاب"(١)،

والسياق القريب للآيات فيه حديث عن الخوض في شأن القبلة وتحويلها إلى الكعبة المشرفة، وبيان أن الشأن كل الشأن في الأعمال الصالحة التي تقدّم لله تعالى بصنوفها المختلفة والمتسعة، ابتداءً من صحة الاعتقاد، وصولا إلى العمل الصالح، فيكون الإحسان على كل الأصعدة، وهذا ما يجب الاهتمام به ما دام الاعتقاد صحيحا.

والسياق البعيد للآية متصل بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة ١٤٢) الذي هو بداية تمييز أمة محمدﷺ الذي سبق الحديث عنه(٢) .

---

(١) جامع البيان ٣١٩/١ .

(٢) ينظر مطلب الدلالات السياقية لصريح لفظ :(التطوع).

ولما كان من أهم مقاصد تحويل القبلة تميّز أمة محمد مع تسليته ﷺ، وكان الإذعان والتسليم لهذا الأمر العظيم أصلا في هذا الموضوع؛ جاء النصّ على أن البرّ مقصود به اعتبار الغايات لا الوسائل، فروعٌ تُرّد على أصولها، واعتقادٌ يتبعه عمل صالح.

وعن معنى لفظ (البر) وأنه واسع شامل، قال البغوي: " البرّ: كل عمل خير يفضي بصاحبه إلى الجنة "(١)، وقال الأصفهاني: " البَرُّ خلاف البحر، وتصوّر منه التوسع فاشتق منه البِرُّ، أي : التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله تعالى تارة نحو :﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (الطور ٢٨)، وإلى العبد تارة، فيقال :بَرَّ العبد ربه، أي :توسّع في طاعته"(٢)؛ فوصف البَّر-بفتح الباء-في حقّ الله بمعنى: إحسانه لعباده المؤمنين والكافرين بالنعم الظاهرة والباطنة، والبِرّ -بكسر الباء-من العبد لربه :توسّعٌ في طاعته، أما البِرّ بين الخلق فهو حسن الخلق، فقد قالَ ﷺ:"البِرُّ: حُسْنُ الخُلُقِ، وَالإِثْمُ: ما حَاكَ في نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليه النَّاسُ."(٣)، فجعله رسول الله ﷺ مقابلا للإثم، والضدّ يظهر حسنه الضد، فالبرّ هو الحسنات، والبرّ يوصل إلى الجنة، ونظيره يوصل إلى النار، وفيه إشمام لمعنى الصلة استنادا إلى حديث الرسول ﷺ : " إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدِي إلى الجَنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حتَّى يَكونَ صِدِّيقًا. وإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُورِ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدِي

(١) تفسير البغوي ٢٦١/١.

(٢) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، المحقق: صفوان عدنان الداود، ط١، ١٤١٢هـ ،دار القلم، الدار الشامية -دمشق / بيروت .

(٣) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج ،أبي الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، حديث: النواس بن سمعان ﷺ، رقم الحديث :(٨٩٩٢) ط ٣ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م ، دار ابن كثير - اليمامة / بيروت .

إلى النَّارِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا "(١).

والحاصل: أن البرّ: هو اسم جامع للطاعات والخيرات كلها المقرّبة إلى الله تعالى، ابتداءً من صحة العقيدة مرورا بالفروض، وبكل عمل صالح يوصل إلى الجنة، والمعتقد في معنى البرّ هو الركيزة لقبول العمل وعدم حبطه.

خلاصة في علاقة معنى (التطوع) بمعنى كل من (الخير) و(البرّ):

يلاحظ مما تقدّم أن معنى لفظ : (الخير) يقرب من معنى (التطوّع) ؛ لاشتماله على باب التنفّل، وتبعد صلة لفظ: (البرّ) عن معنى التطوّع في جانب الدلالة على التنفّل؛ لأن البرّ أصل في الأعمال الواجبة على المسلم وليست النافلة، في حين يبعد معنى لفظ :(الخير) من التطوّع إذا قُصد منه المال؛ لأنه ليس خيرا محضا، ولا يطلق التطوّع إلا على الخير المحضّ.

وتقرب صلة لفظ: (البرّ) من معنى: (التطوّع) من وجه دلالته على الخيرية المحضة؛ لأن البرّ لا يكون إلا في صالح الأعمال .

(١) السابق، حديث: عبد الله بن مسعودﷺ، رقم الحديث: (٢٦٠٧).

المطلب الثالث

مشاهد التطوع في القرآن الكريم

لما كان التطوّع يسهم في تحسين جودة الحياة للأفراد والمجتمعات، وكان التطوّع من المشترك الحضاري الإنساني فلا تجد أمةً انفردت به، أو كان لها فيه خصوصية، إنما هو دعامة المجتمعات الحيوية، ودليل تطورها، ونموّها نموّا صحيحا، لما كان ذلك كذلك؛ كان التطوّع ركيزة عبر عصور التاريخ كلها، وكان الأنبياء هم الروّاد فيه، حتى أصبحوا قدوة في العمل الصالح .

ولما كان التطوّع أصلا في الدين الإسلامي كانت مشاهد التطوّع وفيرة في القرآن الكريم ومتعددة السياقات، وسنلقي الضوء على بعض منها مما يعزّز وظيفة هذا البحث .

أولا :من مشاهد تطوع الأنبياء في السياق القرآني :

تطوع زكريا –عليه السلام–:

قال الحق تبارك وتعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ إلى أن قال : ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران٣٧–٤٤)

هذا مشهد يحكي استهام زكريا عليه السلام ومن معه لضمان مريم –عليها السلام– وهو يبين في جانب منه منزلة مريم–عليها السلام– التي استبق كبار القوم للفوز برعايتها، وهي تشي بالخيرية التي في قلوب هؤلاء المستهمين، الذين كان على رأسهم نبي الله زكريا في المبادرة بأمر لم يُفرض عليهم، وهو على كونه غير ملزم،

فيه من ثقل المسؤولية وعظمها ما لا يخفى؛ حيث إن الكفالة والتكفّل بمعنى التضمّن والضمان(١)، وبمعنى الإعالة والإنفاق(٢)، وهما داخلان في التضمّن، وعلى السواء قراءة من شدّد: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ فكان الفاعل هو لفظ الجلالة، أو من خفّف:﴿ وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا﴾فكان الفاعل هو نبي الله زكريا؛ على السواء في معنى التضمّن، ولما قال: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ ظهر معنى الاصطفاء لزكريا عليه السلام، وكان معنى تسخير زكريا ﷺ أقلّ ظهورا من الأول، وهي معانٍ تشي بالتأييد للعمل الخيري التطوعي، وترغّب فيه .

ولعل قوله: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ﴾ يشير إلى حسن كفالة زكريا عليه السلام لمريم –عليها السلام– ورعاية شؤونها مرة بعد مرة، ووجود الرزق المستدام عندها فيه دلالة على أن المتكفل الحقيقي هو الله تعالى، ولعل تنكير ﴿ رِزْقًا ﴾ يدل على عظمة هذا الرزق وتنوعه، الأمر الذي استرعى انتباه نبي الله زكريا عليه السلام، فدعا ربه بالذرية الصالحة فاستجاب الله له .

مشهد كامل يحكي تطوّع وتبرع نبي كريم بعمل لا يلزمه، وهو نبي اصطفاه الله ومع ذلك يتبرع ويتطوّع بما يقربه إلى الله تعالى، كما يبين في جانب منه أن هذه الأعمال مما يسارع فيها، بل ويستهم للفوز بها؛ طلبا لمرضاة الله وأجره .

ونلحظ أن الفاصلة القرآنية:﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ يسّرت الانتقال إلى الحديث عن مشهد زكريا ومناجاته ربه، وأسهم في الربط بين الحالين، حال استعجابه وجود رزقٍ عند مريم ليس في أوانه، وحال مناجاته ربه بطلب الذرية؛

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة مادة (كفل) .

(٢) ينظر: أساس البلاغة مادة (كفل) (أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله ، تحقيق: محمد باسل عيون السود، مادة (كفل)، ط١، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، بيروت / لبنان) .

التعبير البياني: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾، كما أنه يلوّح بمعنى: أن أعمال الخير باب لفتح المغاليق عند الاحتساب، وذلك تصريفٌ لمعنى الترغيب في العمل الصالح.

والسياق القريب للآيات فيه تمهيد للحديث عن قصة عيسى عليه السلام ، هذا التمهيد جاء فيه تقرير اصطفاء آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران عليهم السلام على الأنبياء، وتخلّص منه إلى ذكر امرأة عمران وحملها ونذرها، ثم تحسّرها بأن كانت المولودة أنثى- وقد نذرت ما في بطنها لخدمة البيت- ثم تقبّل الله لتلك الأنثى قبولا حسنا، ولما كان ذلك كذلك؛ جاء الإخبار بتكفل زكريا عليه السلام ورعايته مريم ، تلاه حديثٌ عن دعاء زكريا عليه السلام أن يرزقه الله ذرية طيّبة، واستجابة الله له، وحديث آخر عن اصطفاء الله لمريم – عليها السلام- وتطهيره لها.

مشاهدُ مرتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا، بل ويفضي بعضها إلى بعض، وتشير إلى أمور هامّة تدرك من خلالها أن ترتيبها يحقق معاني عظيمة سلَّط البحث الضوء على ما هو متعلق فيها بمعنى التطوّع من التنفّل والإحسان والمبادرة، وما يتعلق بها من تصريف المعاني وصنوف الأجر .

أما السياق البعيد لهذا المشهد فهو المتصل بأول السورة الذي يحكي سبب نزولها، وهو الردّ على وفد نجران الذين جادلوا في عيسى عليه السلام ؛ لأنه لما كان مقصود السورة الأعظم ترسيخ التوحيد، وكان الشرك بالله هو أعظم مناقض للتوحيد، وكان نزول سورة آل عمران حجاجا، وردا على وفد نجران الذين جادلوا الرسول في عيسى عليه السلام وكان يناظرهم ويحاجّهم(١)، لما كان مقصود السورة كذلك؛ جاء المعقد الأول من السورة يؤسس لمعنى العلم بالله تعالى، وجاء اسم السورة يعزّز هذا المقصود ، ويدعم الحجاج في قولهم: عيسى ابن الله، فأبان عن فضل آل عمران

(١) ينظر سبب النزول في تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ٣/ ٦٥٠ .

الذين تحقق فيهم التوحيد، والذين يعتريهم الضعف والنقص كصفة من صفات البشر، وهذا أصل في تحقيق توحيد الله تعالى الكامل الذي ليس له شريك ولا مثيل .

هذه الآيات الكريمة في معانيها الكلية تحمل معنى التسلية والتثبيت والتصديق للمصطفى ﷺ ، قال السعدي: " لما ذهبت بها أمّها إلى من لهم الأمر على بيت المقدس، فتشاحوا وتخاصموا أيهم يكفل مريم، واقترعوا عليها بأن ألقوا أقلامهم في النهر، فأيّهم لم يجر قلمه مع الماء فله كفالتها، فوقع ذلك لزكريا نبيهم وأفضلهم، فلما أَخْبَرتَهُم يا محمد بهذه الأخبار التي لا علم لك ولا لقومك بها؛ دلّ على أنك صادق، وأنك رسول الله حقا، فوجب عليهم الانقياد لك، وامتثال أوامرك"(١)، ولعل تكرار قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ مرتين يؤكد أن هذه القصص والأخبار من خفي الغيب التي أطلع الله نبيه محمدا ﷺ عليها، وفيه دلالة على صدق نبوته، وقطع الأعذار على منكري بعثته ﷺ، وذلك له علاقة وطيدة بمقصود سورة آل عمران الذي هو توحيد الله بالعبادة والتصديق بنبوة محمد ﷺ .

ثانيا: من مشاهد تطوع الصالحين في السياق القرآني :

تطوع ذي القرنين :

يعد مشهد تطوّع ذي القرنين ببناء سدٍّ يحول بين الناس ويأجوج ومأجوج المفسدَين؛ من أهم مشاهد التطوّع، وذلك من قول الله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ (الكهف ٨٣) إلى قوله:﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ (الكهف ٩٨).

(١) تفسير السعدي صـ١٠٥.

مشهد كامل يشرح كيف عانى الناس من يأجوج ومأجوج بسبب اعتدائهم بالقتل وأخذ الأموال؟ وكيف عرف المتضررون من أنفسهم عدم الاقتدار على مواجهتهم؟ وعرفوا اقتدار ذي القرنين عليه، وقد أعلموه ابتداءً عن فسادهم المستحق للمواجهة، وعرضوا عليه أجرة، ولم يكن ذو القرنين له طمع بذلك، فطلب العون من الله، ومن المتضررين قوة البدن والآلة، وعمل على قطع الحديد وصهره، وساوى بين الجبلين، ونفخوا حتى صار الحديد نارا، ثم أفرغ عليه نحاسا مذابا فسدّ مكان خروج يأجوج ومأجوج؛ فما استطاعوا أن يأتوه من الأعلى لعلوّه وملاسته، وما استطاعوا نقبه من أسفل لشدته وصلابته، ثم ردّ ذو القرنين الأمر إلى رحمة الله، وإلى مشيئته التي أراد.(١)

يتجلى معنى التطوّع في هذا المشهد الحيّ عند ذي القرنين حينما طلب الناس منه العون مقابل أجرة مادية في قول الله تعالى على لسانهم: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ (الكهف٩٤)، قال السعدي: " فلم يكن ذو القرنين ذا طمع ولا رغبة في الدنيا، ولا تاركا لإصلاح أحوال الرعية، بل كان قصده الإصلاح، فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجرة، وشكر ربه على تمكينه واقتداره"(٢).

كان تطوّع ذي القرنين للإصلاح في الأرض، وقد وفّقه الله تعالى لذلك، ولم يصبه العُجب بعمله، بل اعترف بفضل الله عليه لتمكينه لهذا العمل، وهذا معنى عظيم فيه تعليم للعباد أن المقدرة على الإحسان للآخرين إنما هو توفيق من الله تعالى وإحسان

(١) ينظر: السابق صـ٣٨٠.

(٢) تفسير السعدي صـ ٣٨٢.

منه لعبده واصطفاء كذلك، وهذا ما يجب أن يستشعره المؤمن فلا يصيبه عُجب بعمله، بل يستشعر فضل الله عليه، وأنه استعمله ولم يستبدله .

يحكي السياق القريب للآيات قصة مصاحبة موسى عليه السلام للخِضِر والأسرار في أفعالٍ فَعَلها الخِضِر، ظاهرها الفساد وباطنها الصلاح والحكمة، مع استنكار موسى عليه السلام لتلك الأفعال وعدم الصبر على عدم السؤال عن سببها، يتلوه تفسير الخضر لكل تلك الأفعال بما يبيّن علمه وحكمته وصلاحه، ثم ذكرٌ لحتمية الفراق، مع ردّ الأمر كله لله تعالى.

فانتظمت القصتان- الخضر مع موسى، وذو القرنين مع يأجوج ومأجوج- لتشابهما في كثير من أحوالهما؛ من إقامة المنافع على يد صالح ذي علم وهو الخضر، وصالح ذي سلطة وهو ذو القرنين، وكلاهما ثبت فضلهما، وهما متطوّعان لعمل الخير، طائعان لربهما، قال البقاعي عن تناسب القصتين: "ولما فرغ من هذه القصة التي حاصلها أنها طواف في الأرض لطلب العلم، عقبها بقصة مَنْ طاف الأرض لطلب الجهاد، وقدّم الأولى إشارة إلى علو درجة العلم؛ لأنه أساس كل سعادة، وقوام كل أمر"(١).

وفي القصتين بيان فضل مَنْ ثبت فضله، ووجوب الانقياد للحق عند بيانه، ووجوب ردّ الأمر كله لله، وهو من أهم مقاصد سورة الكهف ومعانيها الكليّة التي سعت إلى بيانها، وفي القصتين يتجلّى معنى التطوّع بالعمل لأجل مساعدة الآخرين، وعدم طلب أجر ذلك، وردّ الأمر كلّه؛ فضله وسببه ونجاحه وتوفيقه لله تعالى.

أما السياق البعيد للآيات ففيه ضرب المثل بأصحاب الكهف، والجنتين؛ لبيان حقارة الدنيا، والأمر بعدم الركون إليها، فأصحاب الكهف هم قوم آمنوا بالله، ولم

---

(١) نظم الدرر ٤/٥٠١ .

يشركوا به، وحفظوه فحفظهم، وعرفوا أن هناك حسابا ينتظرهم، وخافوا على دينهم ففروا به من القوم الكافرين، وأنقذهم الله تعالى، وصاحب الجنتين اغترّ بما لديه من غنى وكثرة في الأموال، فتكبّر وأنكر البعث، فجازاه الله بهلاك ثمار جنتيه، فأصبح الكافر يقلّب كفيه تحسّرا على إنفاقه عليها الغالي والنفيس، وعرف أن هذا عذاب سببه الكفر بالله تعالى.

ولعل مقصود السورة الذي هو الثبات على العقيدة والعصمة من الفتن على اختلاف أنواعها، وسبيله التمسك بالكتاب القيّم الزاجر عن الشرك؛ لعله وثيق الصلة بالسياقين القريب والبعيد اللذين طرحا فِتَنًا أَرْبعا، وهي: فتنة المال، وفتنة الدين، وفتنة العلم، وفتنة السلطة، وَمَنْ ثبت وَمَنْ افتتن .

وذو القرنين ممن ثبّته الله تعالى، فاستخدم سلطانه فيما يكون فيه نفع وصلاح للناس، مع علمه ويقينه بأن كل ما أوتيه من سلطان وقوة هو رزق من عند الله ، وأن ما قدّمه من عمل لوجهه تعالى تسخير وتوفيق وهداية من رب العالمين، وهذا هو الأولى بخلق المؤمن حيال النعم .

ثالثا: من مشاهد تطوع المؤمنين في السياق القرآني :

تطوّع الرجل المؤمن:

قال تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ إلى قوله تعالى:﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (غافر ٢٨-٤٤).

مشهد عظيم يحكي إصرار رجلين، أحدهما: مؤمن صالح يظهر عليه حرصه على قومه، يسير بهم نحو الهداية، ولديه حجة ومنطق ، وآخر: كافر مستكبر، غير

قادر على نصح نفسه ولا غيره ،يسير بقومه نحو المهالك، وفرق بين الإصرارين كالفرق بين المؤمن والكافر.

يحكي السياق البعيد للآيات وصف الكتاب المنزّل، وذكر بعض صفاته –سبحانه وتعالى–، ثم ذم جدال الكفار في الكتاب الذي هذا صفاته، يليه تنديدٌ بكذب الأقوام السابقة وذكرٌ للوعيد لهم.

ثم الانتقال من ذلك إلى المقابل، وهو الثناء على المؤمنين، ثم عودٌ إلى موعظة أهل الشرك والتذكير بأن اعترافهم بالبعث يجب أن يكون قبل قيام الساعة وإلا لن ينفعهم هذا الاعتراف، يليه ذكر أفعال الله تعالى المقتضية للتنزيه وعدم الإشراك به، والدالة على وجوده تعالى ووحدانيته .

ويذكر السياق القريب لهذا المشهد يوم القيامة الذي يحاسب فيه العباد على أعمالهم دون ظلم لهم، متخذا من الإنذار وسيلة ، ثم انتقالٌ من إنذار كفار قريش من عذاب الآخرة إلى الموعظة والتحذير من أن يحل بهم ما حلّ بالأمم السابقة عموما، مع ذكرٍ لسبب هذا العذاب.

ثم خصّص النظم الكريم بذكر قصة موسى عليه السلام التي لم يشهدها العرب، وفي ثناياها قصة الرجل المؤمن الذي كتم إيمانه خوفا من فرعون، ونصيحته التي تطوّع بها لقومه، والتي تبين حرصه عليهم، وسيأتي تفصيلها .

لما شاع توعد فرعون بقتل موسى عليه السلام جاء رجل إلى فرعون ناصحا، وكان يكتم إيمانه، ولم يكن محل تهمة فرعون لأنه كان من آله، قال تعالى في بداية المشهد على لسان هذا الرجل: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ فالمؤمن محتسب متطوع بنصيحته، خاطب قومه خطاب لين مع ما به من حجة بيّنة، وهذا

ظاهر من خطابه الإنكاري الذي استنكر أن يؤمر فيه بقتل موسى ﷺ فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا ﴾ استنكار قتل رجل بالتنكير – بدون انحيازٍ لموسى ﷺ أو غيره– قتل رجلٍ يقرّ بربوبية الله تعالى، رجلٍ قدّم البراهين الدالة على صدقه.

وجّه الرجل المؤمن خطابه للقوم والمراد فرعون؛ لأنه الآمر الناهي، قال السعدي: " أي: كيف تستحلون قتله، وهذا ذنبه وجرمه أنه يقول ربي الله، ولم يكن أيضا قولًا مجردًا عن البينات؟! ولهذا قال: ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ Pلأن بيّنته اشتهرت عندهم اشتهارًا علم به الصغير والكبير، أي: فهذا لا يوجب قتله". (١)

ثم تجرّد الرجل المؤمن من التحيّز ثانية حين استدرجهم إلى الاستدلال وإعمال الذهن، فقال:﴿ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وأردف بقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ وفي تقديمه لاحتمالية كذبه على صدقه تأكيدٌ لعدم التحيّز لموسى ﷺ، وفي ذكر النظير من احتمالية الصدق تنويه بشأن العقل الذي يجب إعماله فيما يرضي الله تعالى، وإشمام لمعنى التعريض بعقولهم إن لم يعملوها .

ولما قدّم الرجل المؤمن بالحجة والبرهان اللذين يستميلان العقول للتصديق؛ أردف بقوله: ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾(غافر ٢٩) فخاطب قلوبهم، وتحبّب إليهم بندائهم بالقوم مع النسبة إليه، ثم ذكّرهم بملكهم في الأرض وفضل الله عليهم، وخوّفهم من غضب الله عليهم، إلا أن فرعون بادر بالتأكيد على رأيه وزكّاه فوصفه بأنه سبيل الرشاد .

---

(١) تفسير السعدي صـ٤١٠.

ومع ذلك استمر المؤمن المتطوّع في نصح قومه دون توجيه الخطاب لفرعون مباشرة، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ*وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ (غافر ٣١-٣٠)، فكرر العبد المؤمن نصحه متطوعا به، حريصا على قومه، محذّرا إياهم من التحزّب ضد موسى كما تحزّبت بعض الأقوام على أنبيائهم، مثل: قوم نوح، وعاد، وثمود، ثم خوّفهم من اليوم الآخر وحسابه، وعدم وجود العاصم من الله تعالى؛ لأنه ليس فوقه أحد، وهذا يشي بعلاقاتٍ مع افتتاح السورة باسم العزيز لله تعالى .(١)

ولما أجمل في نصحه ذِكْر نوح وعاد وثمود؛ فصّل ذكر يوسف عليه السلام وتكذيب قومه له، وأردف بذكر وصف المسرف الكذاب؛ من الجدال في الآيات البيّنات الظاهرات بغير حجة، وصاحب هذه الصفة يمقته الله والمؤمنون مقتا شديدا- وهذا الوصف شديد الصلة بافتتاح السورة (٢) ويعد محورا هاما من محاورها- وظاهر الأمر مقاطعة فرعون لمقالة الرجل المؤمن (٣) مما يبين عن أن حجة المؤمن ظاهرة وكلامه بيّن، مما جعل فرعون يخاف على قومه من اتباعه.

ثم إن الرجل المؤمن ما زال بهم ينصحهم علّهم يرشدون متخذا من قوله: (يا قومِ) افتتاحا حسنا لاستمالة قلوبهم في كل مرة، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ فنصّ على أن ما يقوله هو سبيل الرشاد، وهي نفس مقولة فرعون سابقا، وفيه إشمام معنى التنازع، فكلا الرجلين وسما قولهما بأنه سبيل الرشاد، إلا أن الرجل المؤمن قدّم لقوله بالحجة والبرهان والتسلسل المنطقي، وهو

---

(١) ﴿حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ غافر (١-٢) .

(٢) ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ غافر (٤) .

(٣) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر ٢٩).

مكمن قوته، وفرعون كانت قوته في سلطته وتسلّطه فقط ، كما يظهر فيه تعريض بأن ما يدعو إليه فرعون ليس هو سبيل الرشاد الذي ادّعاه .

ثم إن الرجل المؤمن أردف قائلا كما حكى النظم الكريم:﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (غافر٣٩-٤٠) فأبان بمقالته هذه عن حقيقة الدنيا وسرعة زوالها، وأنها دار عمل وتزوّد، وصوّر الحياة صورة المتاع الذي يُنتفع به ثم يأتي عليه الفناء، بل قصرها على هذه الصفة، وأكّد أن الآخرة هي دار القرار، وبيّن كيف هو التزوّد للآخرة؟

ونادى المؤمن قومه نداء أخيرا، فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ فكرّس الكلام وركّزه، وناظر بين الدعوتين، فجعل دعوة موسى عليه السلام دعوته ، وجعل دعوة فرعون كأنها دعوة قومه؛ تجنبا لإظهار التحيّز مع موسى عليه السلام، وإغفالا للمواجهة مع فرعون، وفيه عرض موضوعي جاد للمآلين والحالين على السواء: الدعوة إلى النجاة، والدعوة إلى النار، ولما كان الهلاك هو المقابل للنجاة، وكانت النار هي سبيل الهلاك في الآخرة؛ جاء النصّ بذكر (النار) للترهيب المباشر من عدم الاستجابة لدعوة موسى عليه السلام، ولما قدّم بذكر مآل الدعوتين؛ أردف بذكر حالهما؛ ليضع نصب أعينهم أصل الدعوتين؛ الأولى: كفر بالله وشرك به، والثانية: إيمان بالله، وكما كان للطباق المعنوي أثر في الترهيب من المآل، كان له أثر آخر في بيان قوة وأصل دعوة الرجل المؤمن، معزّزا ذلك بصفتين عظيمتين من الصفات التي توجب الإيمان بالله وهما: (العزّة والمغفرة)، أي: الغلبة والرحمة، مما يعزّز الترهيب من النار، والترغيب في الإيمان بالله من جهة أخرى.

وجاء هذا المعنى بطريق الاستفهام المفيد معنى التعجب من دعوة فرعون التي تعتبر خبيثة في الحال والمآل معا، وأسهم التقابل بين المعنيين في بروز المعنى وتحقيق مقاصده .

ثم إنه ختم الكلام بحقيقة مسلَّمة، فقال تعالى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ يقول السعدي عن المعنى: "حقًّا يقينًا لا يستحق من الدعوة إليه والحث على اللجأ إليه في الدنيا ولا في الآخرة؛ لعجزه ونقصه، وأنه لا يملك نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة، ولا نشورًا" (١) ثم ختم بإنذارهم، وتفويض الأمر لله تعالى.

لم يألُ هذا الرجل المؤمن جهدا في النصيحة لقومه أمام فرعون، مع ما عُرف عن الأخير من قوة البأس والبطش، فصرّح تارة وعرّض أخرى، وأجمل وفصّل، ووعظ وبرهن، ومثّل وصوّر، وقدّم وختم، كل ذلك لوجه الله؛ طلبا لأجره ورضاه، وهذا تسخير من الله لمعاضدة موسى عليه السلام ، يقول الزمخشري عن الرجل المؤمن: " لا جرم أن الله استثناه من آل فرعون، وجعله حجة عليهم وعبرة للمعتبرين، وهو قوله تعالى: ﴿فوقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذاب ﴾ وفي هذا أيضا دليل بين على أنّ الرجل كان من آل فرعون ". (٢)

---

(١) تفسير السعدي ٤١٥ .

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود والشيخ على محمد معوض، شارك في تحقيقه: فتحي حجازي ٢٠٣/٥، ط ١ . ١٤١٨ هـ /١٩٩٨ م مكتبة العبيكان الرياض .

مشهد كامل ذو أحداث وفصول يشي بتصاعد معنى التطوع في السياق القرآني؛ حيث أطلعنا على تطوّع من نوع خاص؛ تطوع بكلمة حق أمام سلطان جائر، وهو الذي قال عنه المصطفى ﷺ: «إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»(١) تطبيق عملي لمعنى شريف، وإنما اعتبرت كلمة الحق أما سلطان جائر من أعظم الجهاد؛ لأن القائل مظنة الإيذاء أو القتل، وهو محط نظر ومسؤولية، ولذلك لا يستطيع تحمّلها إلا من تطوّع بنفسه في سبيل الله، وهذا الرجل المؤمن ضرب أصدق الأمثلة على التطوّع بالكلمة أمام سلطان جائر، ولم يعرف عن أحد من قوة البطش مع الظلم مثل ما عرف عن فرعون.

وقصة المؤمن وثيقة الصلة بمقصودها الذي هو الاستدلال على أن الناس في الآخرة على صنفين: مؤمن وكافر، وكل منهما سيوفّى حقّه لأن الله هو العدل،(٢) وهذا ما جاهد الرجل المؤمن لإيصاله وتفهيمه.

كما أن قصة الرجل المؤمن وثيقة الصلة باسم السورة، فقد ورد أن من أسمائها: غافر؛ ترغيبا في التوبة إلى الله تعالى، وورد أيضا من أسمائها: المؤمن، وإنما كان ذلك كذلك، بيانا لأهمية هذا المحور من المعاني الكليّة للسورة .

فالسياقات القريبة والبعيدة وثيقة الصلة بمشهد التطوّع هذا، بل هو ركيزة من ركائزها، لأنه يتصل بمعانيها الكليّة؛ من التركيز على صفتي الغلبة والعلم لله تعالى، وحال الأمم السابقة التي كذبت بالآيات الدالات، ومآل المجادلين في الله تعالى غير المصدقين به، فعمل على الترسيخ لها، وقد جاء بطريق القصة، وكان الحوار ذا أهمية بالغة في بيانها، وكانت من الوضوح والتفصيل ما تغني كل أحد عن السؤال، فَشَفَتْ واشْتَفَتْ .

---

(٦٨) سنن الترمذي، رقم الحديث (٢١٧٤) عن أبي سعيد الخدري .

(٦٩) نظم الدرر ٦/ ٤٨٢.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين، وبعد، فقد خلصتُ في هذا البحث إلى **نتائج** كان أهمها وأبرزها ما يأتي:

-الوقوف على السياق القريب والبعيد للآيات المذكور فيها صريح لفظ التطوّع، أو ما يقارب معناه، أو المشاهد الدالة عليه؛ ذو أثر في فقه المعنى القرآني، وفي ربط خيوطه الموصلة إلى العلم بمقاصد الآيات، وغاياتها.

-الوقوف على معنى الألفاظ التي تقارب لفظ التطوّع، ومعرفة العلاقة بين المعاني الوضعية والدلالية؛ له أثر في التأصيل لمعنى التطوّع، والكشف عن مستوياته، وطرقه، والأبواب الموصلة إليه.

-تتنوّع السياقات الواردة في ذكر التطوّع بصريح لفظه، أو بما يقاربه أو بمشاهده الدالة عليه؛ إلا أن النظر بطرف خفي في تناسب ذكره مع السياق الترتيلي للقرآن يُنتج لنا أن التطوّع بالعبادة ركيزة تنطلق منها جميع أنواع التطوّع، فإذا ربى الإنسان نفسه، وروّضها على السنن؛ نما العطاء عنده ويَسُر أمره، وإذا يَسُر أمره هان على النفس الاستمرار، وعدم الانقطاع، وأصبح العطاء جبلّة يسقيها؛ رغبة في حصول رضا الله تعالى .

- يعدّ التطوّع في غير العبادة من الأعمال متعدّية النفع، وهو باب أوسع من نظيره اللازم الذي يعود بالنفع على المسلم وحده، وربما يكون أعظم أجرا، وأدوم أثرا، وهو من أهم أبواب الدعوة إلى الله تعالى، ولكل ذلك تعدّدت سياقاته في القرآن الكريم .

-معنى لفظ : (الخير) يقرب من معنى: (التطوّع)؛ لاشتماله على باب التنفّل، بينما يبعد منه إذا قُصد منه المال؛ لأن المال ليس خيرا محضا، بينما لا يطلق التطوّع إلا على الخير المحضّ.

وتبعد صلة لفظ: (البرّ) عن معنى: (التطوّع) في جانب الدلالة على التنفّل؛ لأن البرّ أصل في الأعمال الواجبة على المسلم وليست النافلة، بينما تقرب الصلة من وجه دلالته على الخيرية المحضة؛ لأن البرّ لا يكون إلا في صالح الأعمال.

-يعد الترغيب في التطوّع أبرز الأغراض التي حققتها السياقات الوارد فيها معنى التطوّع سواء بلفظه الصريح، أو بما يقارب معناه، أو بالمشاهد الدالة عليه، ويعمل الوقوف على المستويات البيانية للآيات على إبراز هذا الغرض وتعزيز فعاليته.

-مقصد الترغيب في العمل الصالح سلك مسالك متنوعة بتنوع المقامات المذكور فيها التطوّع، فمن ذكر للأجور بأوسع معانيها، وحساب الله لكل صنيع، وعدم ضياعه؛ كما ورد في آيات صريح لفظ التطوّع، إلى الوعد بعود آثار التطوّع على المتطوّع نفسه بالخيرية؛ مثل ما ورد في آيات ما يقارب معنى التطوّع في لفظ:(الخير)، إلى التأسيس لقبول العمل الصالح بصحة المعتقد، كما ظهر ذلك في آيات ما يقارب معنى التطوّع في لفظ: (البرّ)، إلى ذكر أن العمل الصالح أصلٌ في انفتاح المغاليق؛ كما ظهر ذلك من مشهد تطوّع زكريا عليه السلام، إلى بيان أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم أبواب التطوّع؛ كما ورد في مشهد الرجل المؤمن، إلى الإشارة إلى سمت وخلق المتطوّعين من المعرفة بالله وإقرارهم باصطفاء الله لهم، وتسخيرهم للعمل الصالح، وردّ نجاحهم فيه إلى الله تعالى، وكل تلك المساقات من باب تصريف معنى الترغيب في العمل التطوّعي في القرآن الكريم .

-المتطوّع بالعمل الصالح يرتقي في تربية نفسه وتهذيبها إلى درجات، فمن رغبة في العطاء، إلى استشعار الفضل من الله في اصطفائه لهذا العمل، إلى إدراك المتطوّع أن سيره في هذا العمل ما كان من نفسه إنما هو تسخير من الله له، وعليه أن يُري الله من نفسه خيرا، إلى تفضيله الأجر على الأجرة ، إلى الإقرار والاعتراف وردّ كل نجاح في العمل الصالح إليه سبحانه وتعالى، وتلك مرتبة عليا يحسن الوصول إليها، وكل

ذلك من القيم العالية التي يسعى التطوّع إلى تربيتها في الفرد والمجتمع، وهي من النفع المتعدي الذي ينبغي أن يكون في خلق كل مسلم ؛ ضمانا للوحدة بين أفراد المجتمع ، وتحصينا له من الضعف والانهيار. وهذه المعاني ظهرت بمعونة السياق وقرائن الأحوال لتخبر عن بلاغة القرآن الكريم، تلك البلاغة التي قال عنها الرمّاني: " إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"(١)، وهذا وإن دلّ فإنما يدل على إسهام علم البلاغة في تعزيز القيم وإجلاء صورها .

التوصيات: توصي هذه الدراسة باستكمال البحث فيها، للتأمّل في أنواع التطوّع وأشكاله الواردة في القرآن الكريم، للاستفادة من صور التطوّع وتطبيقها للخروج بمجتمع غني بالقيم، مدعوم بالرصانة، معزّز بالتكامل .

كما توصي بالاستفادة من الأبحاث العلمية التأصيلية في باب التطوّع لتشجيع الشباب، وتحفيزهم على الالتحاق بالعمل التطوّعي.

(٧٠) ثلاث رسائل صـ ٦٩ .

مراجع البحث

- أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، تحقيق : محمد باسل عيون السود،ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م ،دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان.
-الإمام في بيان أدلة الأحكام ،عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، دراسة وتحقيق: رضوان مختار بن غربية، ط١ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م دار البشائر الإسلامية -بيروت .
-الإيضاح في علوم البلاغة. الخطيب القزويني، شرح وتعليق وتنقيح: محمد عبد المنعم خفاجي ،ط٣ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م ،دار الجيل/ بيروت .
-البيان في روائع القرآن ،ط٢، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، عالم الكتب/ القاهرة.
-البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ ،حققه وشرحه: حسن السندوي ١/ ١٢٧،بدون ط ، ١٩٩٠ م، دار المعارف - تونس.
-تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور. بدون ط. ١٩٨٤م .دار سحنون للنشر - تونس .
-تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، المحقق: محمد حسين شمس الدين ، ط١، ١٤١٩هـ. دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون/ بيروت.
-التفسير الكبير، الإمام محمد الرازي، فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين الشهير بخطيب الري ، بدون ط. ١٣٩٨ هـ-١٩٧٨ م دار الفكر/ بيروت.
-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، مؤسسة الرسالة.

- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، حققها وعلّق عليها: محمد خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام ،ط٤ ،بدون ت ،دار المعارف/ القاهرة .

-جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر ١٤٠٥ هـ - بدون ط ، دار الفكر/ بيروت.

-دلائل الإعجاز أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي ،قرأه وعلّق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر ،ط٣. ١٤١٣ هـ-١٩٩٢ م ، مكتبة الخانجي، القاهرة ،مطبعة المدني -جدة .

-دلالة السياق، عبد العزيز الطلحي (ردة الله الطلحي سابقا) ، ط١، ١٤٢٣هـ، كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى .

-دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين.

- دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن، عبد الوهاب أبو صفية الحارثي، ط ٢٠١٢م ، دار عمار .

-الدلالة اللغوية عند العرب. عبد الكريم مجاهد ،بدون ط،١٩٨٥دار الضياء .

-الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق أحمد محمد شاكر ،ط ٢. ١٣٩٩ هـ، دار التراث-القاهرة.

-سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، ط١، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، دار الرسالة العالمية-بيروت .

-السياق القرآني وأثره في التفسير(دراسة نظرية وتطبيقية) من خلال تفسير ابن كثير، عبد الرحمن عبد الله المطيري، رسالة ماجستير، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م ،كلية الدعوة وأصول الدين -جامعة أم القرى .

-السياق القرآني وأثره في التفسير، (دراسة نظرية تطبيقية) من خلال تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور، محمد عبد الوهاب الراسخ ،جامعة الأزهر الشريف.

-السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة، سعد محمد الشهراني، ط١، كرسي القرآن الكريم وعلومه، جامعة الملك سعود.

-صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق :مصطفى ديب البغا. ط٣. ١٤٠٧-١٩٨٧. دار ابن كثير، اليمامة/بيروت .

-صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج ،أبي الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، ط ٣ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م ، دار ابن كثير - اليمامة / بيروت .

-علم الدلالة، أحمد مختار عمر،ط١ ،١٤٠٢ هـ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع.

- في علم الدلالة تأصيلا ودراسة وتطبيقا، عثمان محمد أحمد الحاوي، بدون طبعة، مكتبة المتنبي. المملكة العربية السعودية/ الدمام.

-في علم الدلالة دراسة نظرية و تطبيقية، فريد عوض حيدر،ط١ ،١٤٢٦-٢٠٠٥م، مكتبة الآداب/القاهرة.

-اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان ،بدون ط، دار الثقافة- الدار البيضاء.

- لسان العرب. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، ابن منظور الأفريقي المصري،ط٣ ،١٤١٤ هـ-١٩٩٤ م ،دار صادر لبنان - بيروت .

-اللسانيات، النشأة والتطور، أحمد مؤمن،ط٢ ،٢٠٠٥م، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون- الجزائر.

-معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النم، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش ، ط٤، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، دار طيبة للنشر والتوزيع.

-المعنى القرآني، معالم الطريق إلى فقهه في سياق السورة، رؤية منهجية ومقاربة تأويلية، محمود توفيق محمد سعد،ط١ ،١٤٤٢هـ -٢٠١٠م ، مكتبة وهبة /القاهرة .

-مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي، ط١،دار الكتب العلمية -بيروت.

-المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط، ١٤١٢هـ،دار القلم، الدار الشامية - دمشق /بيروت .

- مقاييس اللغة، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، بدون ط. دار الجيل - بيروت .

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي .خرّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه: عبد الرزاق غالب المهدي، ط٢ .٢٠٠٣م-١٤٢٤هـ .دار الكتب العلمية /بيروت- لبنان .

- الوساطة بين المتنبي وخصومه، أبو الحسن علي بن عبد العزير القاضي الجرجاني، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي ، بدون ط. بدون ت، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، دمشق .